خالد بن الوليد

نسبه ونشأته

بقلم علي علي عتيبة
المدرس بمحمد علي الابتدائية للبنين

خالد بن الوليد بطل من أبطال الاسلام ، وقائد عظيم من قواد الحرب المحنكين وسيف من سيوف الله . أبوه الوليد بن المغيرة سيد قريش وعظيمها فى الجاهلية ، والملقب بينهم بالعدل ؛ لأن قريشا جميعها كانت تكسو الكعبة سنة ويكسوها وحده من ماله سنة . ولعظيم مكانته فى قومه ، وشدة معارضته للنبي صلى الله عليه وسلم ، فى بدء الدعوة أنزل الله فيه كثيرا من آيات القرآن الكريم: فقد كان الوليد كثير الكيد للنبي ، شديد العناد ألد الخصام ؛ فقال تعالى متوعدا أشد وعيد ، مهددا أعظم تهديد : « ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا » . وقال الوليد مستكبرا متعاليا : أينزل القرآن على محمد ، وأترك وأنا كبير قريش ، ويترك أبو مسعود الثقفى سيد ثقيف ؛ فأنزل الله قوله تعالى: « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات »

من ذلك تعلمون أن خالدا درج فى بيت عز ومجد ، وشرف وسيادة ، ونشأ كما ينشأ العرب إذ ذاك محبا للحرب ، عالما بفنونها مشغوفا بالفروسية يركب الخيل ، ويجيد ضرب السيوف ، وطعن الرماح ، ورمى السهام ، فلم يكد ينزع رداء الطفولة حتى كان سيداً فى قومه ، شجاعا مقداما ، نافذ العقل ، سديد الرأى ، جرىء القلب ، ذكى الفؤاد ، فالقوا إليه بأعنة الخيل ، وكان فى الحرب قائد الفرسان .

وقد ظهرت صفاته العظيمة ، ويقظته وذكاؤه ، ومكره ودهاؤه فى غزوة أحد : فلم يكد رماة المسلمين يتركون مواقفهم التى أمروا بها ، حتى كر خالد

بخيله على المسلمين من خلفهم ، فبدل نصرهم هزيمة منكرة ، ورزءا عظيما ، ولولا أن الله سبحانه مؤيد نبيه ، وحافظ دينه ، لكانت هذه المكيدة القاضية على الاسلام والمسلمين . ولهذه الصفات سر النبي بإسلامه سرورا عظيما ، واستقبله بوجه طلق ، وثغر باسم ، وقال له : الحمد لله الذى هداك ، قد كنت أرى لك عقلا ورجوت ألا يسلمك إلا لخير .

مظاهر عظمته وأسرار انتصاره

وكأنى بكم تسألون ما سر عظمته ، وما الأسباب التى هيأت ذلك النصر المطرد ، والفوز المبين ؟

للعظمة أسرار وأسباب ، بعضها ظاهر جلى . وبعضها مستتر خفى أما الأسباب المستترة فغاية ما يقول الناس عنها : إن فلانا موهوب . وأن له روحا قوية ، وقوة خفية . تجعله مهيب الطلعة ، جليل القدر ، قوى التأثير فى نفوس الجماهير .

وأما الأسباب الظاهرة فتتجلى فى خلق متين ، أو رأى حكيم ، أو شجاعة وإقدام ، أو فصاحة وبيان ، وقد كان خالد بن الوليد عظيما موفور الحظ من أسباب العظمة وأسرارها . وكان قائدا لم يظفر العالم بكثير من أمثاله ، وستلمسون أسباب عظمته ، وأسرار فوزه وانتصاره من الأمور الآتية :

أولا : كان خالد مخوفا مرهوبا ، يسبقه إلى أعدائه جيش من الرعب . فاذا قلوبهم فى جناح طائر من شدة الخفقان ، علم بمقدمه هرقل ملك الروم فقال : ويل للروم من المولود المشئوم ، وقال أحد قواد الملك : أنا أعلم الناس بحاله ، لا أحد أيمن طائرا منه ، ولا أحد فى حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه .

ثانيا : كان حاد الذكاء ، واسع الحيلة ، عظيم الدهاء ، له فطنة فى الحرب ، ليست لأحد من العرب ، يتصور الشيء كأنه يراه ، فهو يتخيل المعركة قبل حدوثها ، ويفكر ويقدر ، ثم يدبر الخطة الحكيمة ، ويرسم السبيل القويم ، فاذا استمر القتال ، وجد ما لم يكن فى الحسبان لم يغب عنه الفكر الصائب ، والرأى السديد ، وسترون فى حرب سليمة كيف كان رأيه فى أثناء المعركة أحد من الأسنة وأمضى من السيوف .

ثالثا : كان يجمع إلى سداد الرأى ، الشجاعة والاقدام ، يدبر الأمر ويحكم الخطة ، فاذا وقعت الواقعة ، وحمى الوطيس ، ضرب لجنوده المثل الأعلى فى التضحية والاقدام ، واحتقار الموت ، فكان يقدم الجيش كالليث الكاسر ، شاهرا سيفا فى حده المنايا ، وفى ضربته المنون ؛ فإذا أبطأ عنه النصر نادى قائد جيش العدو ، ودعاه للمبارزة ، فلا يكاد يخرج اليه حتى يرديه قتيلا .

رابعا : لم يغفل خالد عما يحسب له قواد الحرب الآن ألف حساب ، وهو حالة الجنود النفسية ، أو روحهم المعنوية كما يقولون : فقد كان دائما يذكى فى جنده الحماسة ويقوى روحهم ، ويملأ نفوسهم ثقة وأملا : سمع رجلا من المسلمين فى وقعة اليرموك يقول : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ؛ فقال خالد : ما أقل الروم وأكثر المسلمين ، إنما تكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالخذلان ، لا بعدد الرجال وهو يعمل دائما على إضعاف هذه الروح فى جيش عدوه ويخيفهم ويملأ قلوبهم رعبا وفزعا ويأسا وقنوطا : قال مرة لقائد من قواد الروم : نحن معشر العرب نشرب الدماء وقد قيل لنا لادم أحلى من دم الروم ؛ فأقبلنا نريق دماءكم ونشربها . وقال لقوم تحصنوا منه فى حصن منيع : لو كنتم فى السحاب لحملنا الله اليكم ، أو لأنزلكم الينا .

أمثلة موجزة من حروبه

وإنى أذكر أمثلة موجزة من حروبه ، لتكون مرآة لكم ، ترون فيها شديد بأسه ، وحكيم رأيه ، وقد يغنى القليل عن الكثير :

١ — حربه مع مسيلمة : أبدأ لكم بكلمة عن مسيلمة فإن قصته فيها الطريف المضحك ، وإن كانت كلها شرا وكفرا . كان مسيلمة بن نمامة رئيس قومه ، وقد وفد على النبى فأسلم ، ولما عاد إلى اليمامة ارتد ، وادعى النبوة ، وقال : إن الله قد أشركنى فى الأمر مع محمد ، وأرسل إلى النبى هذا الكتاب : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، أما بعد فانى قد أشركت فى الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصفها ، ولكن قريشا يعتدون ، فكتب النبى إليه :

« من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، السلام على من اتبع الهدى ، أما

بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وقد أهلكت قومك ، أبادك الله ومن صوت معك ،

وفى خلافة سيدنا أبى بكر توجه خالد لقتاله فى بضعة آلاف من المهاجرين والأنصار ، وأهل القبائل ، فلما بلغ مسيلمة دنو خالد خرج إليه فى أربعين ألفا من قومه ، فتقاتل الفريقان قتالا عنيفا ، وكانت الحرب يومئذ تارة للمسلمين ، وتارة للمرتدين ، ولما رأى خالد رضى الله عنه ما الناس فيه قال : امتازوا أيها الناس ، لنعلم بلاء كل حى ، ولنعلم من أين يأتينا الضعف . فلما امتازوا قال بعضهم لبعض : اليوم يستحيى من الفرار . فقاتلوا قتالا شديدا ، وثبت مسيلمة وقومه ، فعرف خالد أن الحرب لا تنتهى إلا بقتل مسيلمة ، فتقدم المسلمين ، ودعا إلى المبارزة ، فلم يبرز إليه أحد إلا قتله ، ثم دعا مسيلمة ، فخرج إليه فحمل عليه خالد وأرهقه ، ففر مهزوما ، وتبعه خالد والمسلمون من خلفه يقتلون ويأسرون ، فقتلوا عشرين ألفاً فيهم مسيلمة ، وتم النصر للمسلمين .

٢ — فتحه العراق : ولما فرغ خالد من أمر مسيلمة أمره أبو بكر بالسير إلى العراق فمضى إليه . وهزم الفرس وشتت شملهم ، وظل ينتقل من فتح إلى فتح ، ويحرز نصراً فى أثر نصر حتى فتح مدائن العراق ، ولما بلغ أبا بكر أنباء هذا النصر العظيم قال : يامعشر قريش ، عدا أسدكم على أسد الفرس فقتله ، أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد ؟

٣ — وقعة اليرموك بالشام : ولما رسخت أقدام العرب فى العراق أرسل سيدنا أبو بكر يأمره أن يسرع إلى الشام لنجدة الجيش العربى الذى يقاتل الروم ، وهنا تظهر عبقرية خالد ، وسداد رأيه ، ومضاء عزيمته ؛ فإن عليه أن يصل إلى ساحة القتال بالشام فى وقت قصير ؛ وأمامه طرق بعضها طويل يضيع الوقت ؛ ويفوت الفرص ، وبعضها إن قصر ، فانه يعج بالمسالح القوية ، والحصون المنيعة ، فماذا فعل هذا القائد المغامر ؟ رأى أن يجتاز بجيشه صحراء قاحلة جرداء يضل فيها النجم ؛ ولا يبلغ مداها الوهم : حرها جحيم ، وريحها سموم ؛ ماؤها سراب ؛ وسحابها رباب ، والسير فيها عذاب أى عذاب ؛ ولكن خالدا له عزم

يفل الحديد فأتى بجمال وأظمأها أياما ثم سقاها حتى رويت ؛ وربط أفواهها حتى لا تجتر ؛ فينفذ ماء جوفها من الماء ثم اقتحم بجيشه هذه المفازة المهلكة ؛ وفى كل مرحلة يذبح بعض الجمال الراوية ؛ ويستخرج ماء جوفها من الماء ؛ فيسقى منه الخيل والدواب ؛ وبهذه الحيلة العجيبة قطع هذه البادية فى عشرين يوما ؛ وأدرك المسلمين فى الشام قبل أن يتخطفهم الروم من كل مكان ؛ ونزل عليهم كما ينزل الغيث الهاطل على القفر الجديب ؛ فكان عمله هذا إحدى المعجزات التى وضعته فى صف هنيبال ، والاسكندر ، ونابليون ، ولم يكد يصل إلى المسلمين حتى اشتبكوا مع الروم فى معركة فاصلة تسمى . وقعة اليرموك ، كان جيش المسلمين فيها أربعين ألفا وجيش الروم مائتين وأربعين ألفا : وتقدم الروم لهم صوت كصوت الرعد . فتقابل الجيشان واقتتلا أشد قتال وأبرحه ؛ وحمل خالد على قلب الروم ، ففصل بين خيلهم ورجلهم ، ولما رأى فرسان الروم يتوجهون للهرب أفرج لهم ولم يحرجهم ، فخرجت الخيل تعدو بهم فى الصحراء ، وأقبل المسلمون على الرجل يعملون السيف ، ويقتلون الصف ؛ فكأنما يهدمون حائطا ؛ فشاعت الفوضى فى الجيش الرومانى ؛ وأطار الفزع أفئدتهم ؛ فولوا مهزومين تحت جنح الظلام بعد أن قتل منهم مائة وخمسون ألفا ولم يقتل من المسلمين إلا ثلاثة آلاف شهيد .

وفاته

قضى خالد معظم حياته فاتحا مجاهدا ، شهد مئات المعارك ، وحارب المرتدين والمتنبئين ، وفتح العراق والشام ، وهزم الفرس والروم ، وتقدم الصفوف ، وجال وصال ، وأكثر من النزال ، فلم يظفر به سيف . ولم يشرف بمقتله سنان ، وها هو ذا تحضره الوفاة ؛ فيبكى ويقول : لقيت كذا وكذا زحفا ؛ وما فى جسدى شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو رمية بسهم ؛ أوطعنة برمح ، ولقد طلبتُ القتل فى مظانه فلم يقدر لى إلا أن أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء . . فعليه رحمة الله .

على على عنبة